بَرَاءَةُ الْمُطْمَئِنِّ

رِسَالَةٌ مُخْتَصَرَةٌ فِي مَقَاصِدِ وَمَضَامِينِ

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلين، محمَّدٍ وآله الطاهرين، واللعنُ الدائم على أعدائهم إلى قيام يوم الدين.

- **مقدَّمة**

يتألَّقُ الإنسانُ في بنائه الفِكري كلَّما استوعب وعاش مسؤولية البناء، وهي ممَّا قد حمَّلناه أئمةُ الحقِّ (عليهم السلام)؛ فقد قال إمامنا الصادق (عليه السلام): "إنَّما علينا أن نُلقي إليكم الأصول، وعليكم أن تُفَرِّعُوا"، ولا شكَّ في استيعاب الأصول لمختلف مناحي الفِكر، فأصول العقيدة والفِقه والأخلاق والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة وغيرها، مُلقاة منهم (عليهم السلام)، والواجب على المؤمنين استخلاصها للتفريع والبناء وعليها.

يَتَرَاجَعُ هذا التألُّق، وربَّما يُعطَّل، لو انشغل أهلُ الفِكر بمناوئيهم والتهم والتي يتلقونها منهم؛ وذلك لأنَّ هذا الانشغال يتحول شيئًا فشيئًا إلى مرضٍ نفسي له انعكاساتٌ سَيئة، مِنْ أبرَزِها الخوف من التُهْمَةِ بِمَا يَمْنَعُ مِنْ إبْرَازِ الفِكر، بل والتصرف فيه بما يرونه مُبعِدًا للتهمة عنهم، في حين أنَّ مراجعةً موضوعيةً صحيحة كفيلة بأن تنتهي بهم إلى استصغَارِ المُخَالفين وما يُشَنِّعون به من تُهم.

لم يتوقف المخالفون يومًا عن ملاحقة الشيعة الاثني عشرية بأنواع التهم وصنوف التشنيعات، وقد تصدَّى المتقدمون من علمائنا بردودٍ مَتِينَةٍ مَاكِنَةٍ، إلَّا أنَّ المُشَنِّعين ما نظروا فيها يومًا بعين طالب الحق (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[1]، فاستمر الحال لقرون على نسق الفِعل منهم وردِّ الفعل منَّا، حتَّى جاء الوقت لأصوات تنادي بما أسمته: مراجعة التراث وتنقيته. ولا أرى ذلك إلَّا لانفتاحها غير المُضبط على المخالفين من مختلف الطوائف والمشارب.

---

[1] - الآية ٤٦ من سورة الحج

وإنَّه ليس بخافٍ معاناة الشيعة على مَدَى قرونٍ مِنْ تُهْمَتَي (الشِرك والغلو)، حتَّى سلَّم بعضهم وصار إلى جبهة المخالفين بدعوى التقريب و(تنقية التراث)، وأصبحت تُهْمَتَا (الشرك والغلو) واقعًا تُساق على موضوعه الأحكام الواردة في أحاديث أهل البيت (عليهم السلام)، هذا والواقع هو بطلان التهمتين أصلًا، ولا يوجد من الشيعة الإمامية الاثني عشرية من يصدق عليه الشرك أو الغلو، وعلينا هنا أن نفهم جيدًا بعدم موافقة مفهومي الشرك والغلو لما تفيده الأحاديث المتواترة معنويًا في المقامات التكوينية لأهل البيت (عليهم السلام)، من قبيل ما عن رسول الله (صلَّى الله عليه وآله):

"خَلَقَنَا اللهُ نحن حيثُ لا سماء مبنية ولا أرض مدحية ولا عرش ولا جنَّة ولا نار، كُنَّا نُسَبِّحُه حين لا تسبيح، ونُقَدِّسُه حين لا تقديس، فلمَّا أراد اللهُ بِدءَ الصنعةِ فَتَقَ نوري فخلق منه العرشَ، فنور العرشِ من نوري، ونوري من نور الله، وأنا أفضل من العرش. ثُمَّ فَتَقَ نُورَ ابن أبي طالِبٍ فَخَلَقَ منه الملائِكَةَ، فنور الملائكةِ من نورِ ابن أبي طالب، ونور ابن أبي طالب من نور الله، ونور ابن أبي طالب أفضل من الملائكة. وفَتَقَ نُورَ ابنتي فاطمة منه، فخلق السماوات والأرض، فنور السماوات والأرض من نور ابنتي فاطمة، ونور فاطمة من نور الله، وفاطمة أفضل من السماوات والأرض. ثُمَّ فَتَقَ نُورَ الحَسَنِ فَخَلَقَ منه الشمسَ والقمرَ، فنور الشمسِ والقَمَرِ من نورِ الحَسَنِ، ونور الحسن من نور الله، والحسن أفضل من الشمس والقمر. ثُمَّ فَتَقَ نُورَ الحُسَينِ فَخَلَقَ منه الجَنَّةَ والحُورَ العِين، فنور الجنَّةِ والحُورِ العِين من نورِ الحُسَينِ، ونور الحُسَينِ من نورِ الله، والحسين أفضل من الجنَّة والحور العين"[٢].

وما عن أبي جعفرٍ (عليه السلام) قال: قال أميرُ المؤمنين (عليه السلام):

"إنَّ الله تبارك وتعالى أحدٌ واحِدٌ تَفَرَّدَ في وحدانيته، ثُمَّ تَكَلَّمَ بكلمةٍ فصارتْ نُورًا، ثُمَّ خَلَقَ من ذلك النورِ مُحَمَّدًا (صلَّى اللهُ عليه وآله) وخَلَقَنِي وذُرِيتي، ثُمَّ تَكَلَّمَ بكلمةٍ فَصَارتْ رُوحًا، فأسكنه اللهُ في ذَلِكَ النُورِ، وأسْكَنَهُ في أبدَانِنَا،

---

[٢] - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢٥ - ص ١٦ - ١٧

فَنَحنُ رُوحُ اللهِ وكَلِماتُه، وبِنَا احتَجَبَ عن خَلْقِهِ، فما زلنا في ظُلَّةٍ خضراء، حيثُ لا شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار ولا عين تطرف، نعبده ونُقَدِّسُه ونُسَبِّحُهُ قبل أن يخلق الخلق"[٣].

تثقل مثل هذه الأحاديث الشريفة على قلوب المخالفين، وقد قال أبو جعفرٍ (عليه السلام):

"إنَّ حديثنا هذا تشمئز منه قلوبُ الرجال، فمن أقرَّ بِهِ فزيدُوه، ومن أنْكَرَه فذرُوه. إنَّه لا بُدَّ مِن أنْ تَكُونَ فِتْنَةٌ يسقط فيها كلُّ بِطَانَةٍ ووليجة، حتَّى يسقط فيها من كان يشق الشعر بشعرتين[٤]، حتَّى لا يبقى إلَّا نحن وشيعتُنا"[٥].

ولكنَّ ما يُتأسَّف له أن تأتي التهمة للحديث والاستهانة به من بعض المؤمنين، إلَّا أنَّها الفتنة التي طالما أشار إليها أئمة الحقِّ (عليهم السلام).

في هذه الرسالة نتعرَّض لإبطال استدلال المخالفين على شرك وغلو الشيعة، متوكلين على الله تعالى بالنظر في مضامين ومقاصد قوله تبارك ذكره فيما يحكيه عن المشركين (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى).

ومنه جلَّ في علاه نستمد العون ونسأل السداد.

السيد محمَّد بن السيد علي العلوي

---

[٣] - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٥ - ص ٩ - ١٠

[٤] - كناية عن الدِقة في الفحص والنظر

[٥] - بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٤٣

مسألة: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[٦].

هنا ثلاثُ مُفرَدات: (نعبدهم، ليقربونا، زُلفَى).

- نعبدهم: هذه ليست دعوى فارغة؛ فالظاهر من (النون) أنَّ تعليل العبادة بالتقريب إلى الله زلفى محلُّ تسالمٍ بينهم، وهذا بعد إقرارهم بكون الفعل (عبادة) وليس أي شيءٍ آخر، وقبل تقرير المراد من (العبادة) في قولهم (مَا نَعْبُدُهُمْ)، نُخرِجُ أوَّلًا احتمال كون المقصود هو (الخدمة)، كما في تسمية (عبد الرسول، عبد الحسين، عبد الزهراء،...)، والمُخرِج هو "أنَّ قُريشًا قَالت: إِنَّمَا نَعْبُدُ الأصْنَامَ لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى، فإنَّا لا نَقْدِرُ أنْ نَعبُدَ اللهَ حَقَّ عِبَادَته"[٧]، فكانت عبادتهم للأصنام عبادة من أجل الغير، والغير كما ينصون هو (الله)، فهم يعبدون الأصنام فعلًا، ويعتقدون أنَّ هذه العبادة تُقرِّبهم من الله، لأنَّهم لا يقدرون على عبادة الله حقَّ عبادته.

يَحْتَاجُ المَقَامُ لِتَسجِيلِ التِفَاتَةٍ حول فكرة عبادة الأصنام.

يعيشُ الإنسانُ الخوف منذ اللحظة الأولى من ولادته، ويلازم ذلك بحثه المستمر عن جهةِ استيثاق تُشعِرُه بالأمان حتَّى في مواقع غياب الأمن، فيتعلقُ بها ويجتهد في التقرب منها حتَّى يتحول هذا الارتباط إلى عبادة بشكل من الأشكال، ثُمَّ يتطور إلى القول بحلول المعبود في إنسان، ويموت هذا الإنسان فيُنصب له تمثال، ويُحَاكَى هَذا التِمْثَالُ فتُصنَع تماثيل أخرى على اسمه، وكُلُّها تحلُّ فيها قوى خاصة تكون بالنسبة للناس مصدرَ إشعار بالأمان.

يقول بعضُ عُلماء الاجتماع ما مضمونه: إنَّ ممارسة العبادة في الأرض تشكَّلت بعبادة الأشياء (**Fetish**) وهي الطبيعي من الموجودات المحسوسة مثل الأحجار والصخور، وعبادة الروح (**Animism**) التي يعتقد أصحابها بوجود

---

[٦] - الآية ٣ من سورة الزمر

[٧] - تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ٢ - ص ٢٤٥

أرواح غير مرئية، لها قوى تسيطر بها على مجريات الأمور، وعبادة الطوطم (**Totem**) وهو علامة نباتية أو حيوانية أو غير ذلك ممَّا يتعلَّق به إيمان القبيلة أو العشيرة فتحاكيه بتمثال يوضع في مقدمة الجيش أو القافلة أو منطقة السكن.

من الواضح أنَّ الإنسان يبحث بفطرته على قوة غيبية خارقة يتعلَّقُ بها لتحفظه من الشرور والأخطار، وهذا أمر لم يخرج عن سلطته أحدٌ على الإطلاق، ومن يتصور نفسه غير ذلك فهو متوهم لا أكثر؛ فمن يروج للمادية المطلقة، هو في الواقع يراها مصدرًا للأمان الذي يبحث عنه، ومثله من يدعو للرأسمالية أو الاشتراكية أو غير ذلك، والفرق هو أنَّ مِنَ النَاسِ مَنْ ذهب للغيب وما وراء العالم المحسوس، ومنهم من بقي في داخل حدود المُدرَكات الحِسية، ويشترك الفريقان في العنوان الباعث، وهو العثور على جِهَةِ استيثاقٍ تُشعِرُه بالأمان.

وكذا، فإنَّ التعلَّق بالجهة المقصودة تعلق عبادي، ولكن كل بحسبه وشكل العبادة التي يرتضيها، ويتضح ذلك من الوقوف على معنى العبادة.

نذكر فيما يلي أربعة أقوال في معنى العبادة. أمَّا الأوَّل فللعلامة الطباطبائي في تفسيره لـ(إيَّاكَ نَعْبُدُ) من سورة الفاتحة، إذ قال "وبالجملة: فكانت العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام المملوكية لربِّه، ولذا كانت العبادة منافية للاستكبار"[٨].

والثاني للسيد الخوئي، وهو قوله: "ممَّا لا يرتابُ فِيه مُسْلِمٌ: أنَّ العِبَادَةَ بمعنى التألُّه تختص بالله سبحانه وحده، وقد قلنا: إنَّ هذا المعنى هو الذي ينصرف إليه لفظ العبادة عند الإطلاق، وهذا هو التوحيد الذي أُرسِلتْ بِهِ الرُسُلُ وأُنْزِلتْ لأجْلِهِ الكُتُبُ: (قُلْ يا أَهْلَ ٱلْكِتابِ تعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألا نعبد إلا اللهَ وَلا نشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ[٩]"[١٠].

وأمَّا الثالث فما عن بعض العرفاء، وهو الخضوع للمعبود خضوعًا تذلُّليًا، أي أن يكون الخضوع بدافع من التذلل ومعلولًا له.

---

[٨] - الميزان في تفسير القرآن

[٩] - الآية ٦٤ من سورة آل عمران

[١٠] - البيان في تفسير القرآن – السيد الخوئي – البحث الثاني، حول آية الحمد، ص٤٦٧

وقد ذهب الرابِعُ إلى أنَّ العبادة هي الخضوع بداعي تنزيه المعبود من النقص. وقد يكون هذا المعنى مستفادًا من تصريح الملائكة بما يحكي عنهم الكتاب العزيز (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)[11]؛ إذ أنَّ التسبيحَ والتقديسَ تنزيهُ المخلوق من النقائص.

هنا أمرٌ محوريٌّ ينبغي الوقوف والبناء عليه، نستلُّه من خلال بحث الإجابة على سؤال:

هل يُعقل أن يّعبُدَ إنسانٌ إنسانًا ؟

بلى، يصحُّ استعبادُ إنسانٍ لإنسانٍ آخر، بمعنى أن يجعله خادمًا له ويسلبه كلَّ، أو مجموعةً من حقوقه الشخصية كحقِّ التملك وما شابه، ولكنَّ هذا المُستعبِد لا يُقال له (معبود)، ولا يُقال لعبده (عابد).

يُجمع (العبد) فيقال: (عِبَاد) ويقال (عبيد)، أمَّا العِبَاد فهم الذين حقَّقوا نسبة من المعرفة بالمعبود جعلتهم يرتقون إلى مستوى العبودية، في حين أنَّ العبيد هم المقهورون المجبورون على فعل الشيء سواء كان برضاهم أو لا.

يذكر اللهُ تَعَالَى مفردة (العِباد) في مواقع الرحمة والرأفة واللطف، فيقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[12]

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)[13]

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)[14]

وعند حديثه تبارك ذكره عن العبيد، فإنَّه يقول:

(لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ)[15].

---

[11] - الآية ٣٠ من سورة البقرة
[12] - الآية ١٨٦ من سورة البقرة
[13] - الآية ٤٢ من سورة الحجر
[14] - الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء
[15] - الآيتان ١٨١-١٨٢ من سورة آل عمران

اتضح أنَّ بين العباد والعبيد عموم وخصوص مطلق، فكل العباد عبيد، ولا عكس.

نُرجِّحُ أنَّ عبادة المشركين للأصنام عبادية، والدليل على ذلك تصريحهم بأنَّها تقربهم من الله زلفى، وهذا يعني معرفتهم بشيءٍ ما، ولا أهمية لكونه صحيحًا أو خاطئًا، فالمهم هنا الوقوف على أنَّ عبادتهم للأصنام عبادة عن معرفة، وبالتالي فهم يعبدونها خضوعًا وتذلُّلًا، وهذا الخضوع والتذلُّل إمَّا أن يكون بالقهر والإجبار، أو بالرضى والتسليم، وهو الثاني لكونه عن معرفة كما تقدم.

من المهم هنا تقرير أنَّ المذموم هو التقرب إلى الله تعالى بعبادة غيره، وليس مطلق وسائل التقرب، فهو عزَّ وجل يأمر بابتغاء الوسيلة إليه، فيقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[١٦]، ويقول تبارك ذكره: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)[١٧]، فالتقرب المُنكر هو التقرب إلى الله تعالى بعبادة غيره، أي بالخضوع والتذلل لغيره كواسطة للوصول إليه.

- لِيُقَرِّبُونَا: جاء الفِعل (يقرِّب) مسبوقًا بلام التعليل، وإثباتٍ له بعد نفي العبادة لغاية غيره، فثبت حصر الغاية من عبادة الأصنام في التقرب، والفاعل للتقرب الأصنام، فهم لا يعبدون الأصنام للتقرب بهم إلى الله، ولكنَّهم يعبدونها لتقربهم إلى الله، ففاعل التقريب نفس الأصنام، وهذا يكشف عن عقيدة في الأصنام أنَّها قادرة على الفعل وأنَّ لها اتصال خاص بالله.
- زُلْفَى: "القُربَةُ والدرجةُ والمنزلةُ"[١٨]، وقد جاءت بعد (لِيُقَرِّبُونَا) التي لا تظهر فيها حيثية الدرجة والمنزلة، فتكون (زُلْفَى) إمَّا بمعنى المبالغة في القُرب، أو أنَّها بمعنى القرب مع المنزلة، وهذا يكشف عن إيمان عميق في نفس الصنم الذي يمتلك هذه القدرات الكبيرة والمقام الرفيع عند الله تعالى.

---

[١٦] - الآية ٣٥ من سورة المائدة
[١٧] - الآية ٥٧ من سورة الإسراء
[١٨] - لسان العرب – ابن منظور -

دعوة الرسول (صلَّى الله عليه وآله):

عبدَ أهلُ قريشٍ وغيرُهم الأصنام والنجوم والكواكب كلٌّ بحسَب موروثه الثقافي، لأنَّهم أرادو شيئًا ملموسًا يوصلهم بالغيب الأعظم، فهم في الواقع يلبون نِدَاءَ الفِطْرَةِ، ولكنَّ الطريق يحتاج لإنارة خاصة.

فلندقق قليلًا..

قال تعالى:

- (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[١٩]
- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[٢٠]
- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)[٢١]
- (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[٢٢]

تُفهمُ هذه الآيات ومثيلاتها على أنَّ الاعتراض ليس على الواسطة بين العباد والله، ولكن على طبيعة تلك الواسطة وطبيعة التعامل معها وحدود اعتمادها كواسطة مجعولة من الله، فما يقوله القرآن هو:

أطيعوا.. خذوا.. وَلِيُّكُم.. هو شفيعكم عند الله..

نفسُ هذه المقولات يعتقدها عبدة الأصنام لأصنامهم، فهم يعتقدون بأنَّ الصنم يريد ولا يريد، ويأمر وينهى، وهو الشفيع لهم عند الله.

---

[١٩] - الآية ٥٥ من سورة المائدة
[٢٠] - الآية ٥٩ من سورة النساء
[٢١] - الآية ٦٤ من سورة النساء
[٢٢] - الآية ٧ من سورة الحشر

قال قومُ هودٍ لهودٍ: (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ)[٢٣].

وقال القرشيون للنبي الأكرم (صلَّى الله عليه وآله): (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)[٢٤].

في الجملة، لم يكن اعتراض الكفَّار على أصل دعوة التوحيد، ولكنَّه كان على الطريق الموصل إليه، وهو في الواقع طريق يحتاج إلى دقة وعمق في النظر؛ وذاك لموضوعية الطريق من جهة، وللعقيدة فيه من جهة أخرى.

مرَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى قد عيَّن الوسيلة إليه، وأمَّا حدودها من جهة الإيمان والاعتقاد بها فهذا ما يأتي بحثه قريبًا إن شاء الله تعالى، وقبل ذلك ينبغي الالتفات إلى دقة الخطوط الفاصلة بين الحقِّ المطلوب، والباطل المرفوض.

يقول الله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[٢٥].

في هذه الآيات العظيمة يبين الله تعالى قول اليهود والنصارى في عزير والمسيح، ثمَّ يذكر عِلاقَتَهم بِرُهْبَانَهم وأحْبَارَهُم، وكأنَّه يُشعِر بأنَّ القول قولهم، وعليه كان أقوامهم تصديقًا واقتداءً، ولم يكن هذا القول معلولًا لاجتهاد فلسفي أو كلامي، ولكنَّه كان لغاية إطفاء نور الله تبارك ذكره.

هنا التفاتةٌ:

ليست الآية في مقام نفي الألوهية عن غير الله تعالى، ولكنَّها في مقام تثبيت القيادة التي ينبغي للناس اتِّباعها، وربَّما يؤيد ذلك قولُ الله جلَّ في علاه (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا

---

[٢٣] - الآية ٥٤ من سورة هود
[٢٤] - الآية ٣٦ من سورة الصافات
[٢٥] - الآيات من ٣٠ إلى ٣٢ من سورة التوبة

فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)؛ حيثُ إنَّ النسبة المفترضة في قضيتها نفي الألوهية عن غير الباري تبارك ذكره، ولذلك قال (إلهين)، ولم يقال (ربَّين) أو (أربابًا).

ينبغي الالتفات إلى أنَّ الربَّ هو المالك وهو الله تعالى، وإذا قيلت لغيره فلا بدَّ من الإضافة، فيُقال: (ربّ البيت، ربّ المدينة، ربّ العمل، ...). في الآية الكريمة قال (من دون الله)، فظهر أنَّ اتخاذ اليهود والنصارى رهبانهم وأحبارهم أربابًا كان لجعلهم كذلك في عَرَضِ ربوبية الله تعالى، وهذا هو محلُّ الإشكال.

زيادة توضيح:

يقول جلَّ وعزَّ: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ)[٢٦] مصرِّحًا بولاية الرسول والذين آمنوا (عليهم السلام) المعطوفة بـ(الواو) على ولايته جلَّ في علاه، ولا شَكَّ في أنَّ الثانية فرع في طول الأولى الأصل، أي أنَّ ولاية الرسول والذين آمنوا (عليهم السلام) لا تتخلَّف عن ولاية الله تعالى على الإطلاق، بل هي مظهر لها، وفي هذا المعنى قال الإمام الحسين (عليه السلام): "رضى الله رضانا أهل البيت"[٢٧].

ينبغي الانتباه جيِّدًا إلى أنَّ التفريط في الارتباط بالوسيلة بدعوى تخليص عقيدة التوحيد من الشركيات هو في الواقع ضلالٌ وبعدٌ مُحتَّم عن التوحيد؛ إذ أنَّه ممتنع الإصابة دون الوسيلة المقرَّرة. حديثنا هنا عن التوحيد وليس عن إثبات الخالق جلَّ في علاه؛ فمسألة الإثبات تأتي أُولى على نحو الإجمال بإثبات برهاني ممتنع عن البطلان مطلقًا ومن جميع جهاته، وأمَّا التوحيد ومقدِّماته فثانية بالتلقي من المعصوم (عليه السلام) والتفريع والبناء عليه بدقة النظر.

تَمَّ بحمد الله تعالى في:

١١ من شهر رمضان ١٤٣٨ هجرية

---

[٢٦] - الآية ٥٥ من سورة المائدة

[٢٧] - مثير الأحزان - ابن نما الحلي - ص ٢٩